أما لهذا الليل من آخر؟

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

إن المسلمين اليوم فى ليل أليل لم يبق بأيديهم من مجد آبائهم إلا الذكرى ، ولا يكاد يبقى فى قلوبهم من عزة دينهم إلا القليل . لكن العجيب أن هذا القليل كلما بدأ ينمو ويشتد كما تنمو الحبة فى الأرض الطيبة إذا أصابها غيث ، نجم للدين من بين من أنعم الله عليهم من أهله بنعمة البيان من يصرف بيانه فى ما من شأنه أن يعوق ذلك النمو . وليس يهم أكان ذلك عن قصد أم عن غير قصد فإن النتيجة للمسلمين واحدة فى الحالتين

ومن أقرب الأمثلة لهذا وأغربها الكلمة التى أرسلها على الناس الكاتب المعروف الأستاذ توفيق الحكيم من برجه العاجى فى رسالة هذا الأسبوع. فقد كتب يعجب مما سماه قيام القيامة فى الجامعة «ضد كتابين قيمين» لاشتمالها على طعن فى الإسلام ، ويزعم أن هذا الذى سماه فزعاً من كل كلمة تمس الإسلام أكبر مسبة لهذا الدين العريق العميق ، لأنه يوهم أنه دين ضعيف يخشى عليه من طعن الطاعنين مع أنه دين متين ثبت على الأحداث فلا خطر عليه من كتاب يؤلف أو عبارة تقال طعناً فيه . ثم يمضى فيعرب عن دهشته أن يكون مظهر هذا الفزع فى الجامعة التى فيها شباب « انغرست فى قلبه العقيدة الحارة فلا خوف الآن عليه من مناقشة المسائل العقلية فى جو الحرية » ويختم بقوله إن صحة العقيدة كصحة الجسم لا بد لها من الهواء الطلق لتكتسب المناعة، ولا خير لها فى أن تحاط ببيت من زجاج

هذا ما قاله الأستاذ توفيق الحكيم كأحسن ما نستطيع أن ننصفه به فى التلخيص .

أنه أولاً يكتب من غير أن يعرف فيما يبدو حقيقة المسألة التى يكتب فيها . لأن المسألة فى أحد شقيها على الأقل ليس فيها شىء يتعلق بمناقشة المسائل العقلية فى جو الحرية ، لأن أحد الكتابين المشكو منهما على الأقل ليس بكتاب مسائل عقلية تدرس وتناقش فى جو من الحرية أو من غير الحرية ولكنه قصة كبعض قصصه هو ورد فيها ذلك الطعن المجوج على لسان بعض أشخاصها . فليت شعرى كيف فات الأستاذ توفيق الحكيم معرفة ذلك حين كتب عن «مناقشة المسائل العقلية فى جو الحرية؟» أم كيف، وقد عرفه، فاته أن ينصف الطلبة حين شكوا من ذلك الكتاب؟

ثم هو فيما يظهر لا يجعل الناس سواسية فى حرية القول والتفكير التى يدعو إليها، وإلا فلماذا لا يترك للطلبة الحرية فى أن يشكوا مر الشكوى أو حلوها ويقيموا القيامة إذا شاءوا على كتابين يطعنانهم فى شىء يعزونه ويقدسونه ولا يريدون أن يسمعوا فيه طعناً ولا تجريحاً ؟ أفمن الحرية أن يقرّر فى الجامعة من قرر دراسة ذينك الكتابين ، ولا يكون من الحرية أن يشكو الطلبة منهما كى يستبدل بهما غيرهما من الكتب الأدبية الراقية الكثيرة الخالية من الطعن فى الإسلام ؟ أفيعاب الطلبة أو الشباب ذوو « العقيدة الحارة » أن يغضبوا لدينهم فيأبوا أن يقرأوا طعناً فيه ، ويطالبوا بتحقيق المصلحة لهم من غير إلحاق مضرة بهم فى الدين ، ولا يعاب من اختار ذينك الكتابين للدراسة عن جهل بما فيهما أو عن استهانة بالشعور الدينى فى المسلمين ؟

إن الذى يقرأ كلام توفيق الحكيم يظن أن الطلبة أكرهوا على ترك كتابين حبيبين إليهم خوفاً على الدين فى نفوسهم من طعن ورد فيهما ، ويفهم أن الكاتب يشير إلى أن هناك تعدياً على حرية التفكير والدرس باسم الدين . والأمر بالعكس ، فحرية التفكير والدرس تقضى بألا يدرس ذانك الكتابان فى الجامعة لأن الذى سخطهما هم الطلبة الذين يريد توفيق الحكيم لهم حرية الدرس والتفكير . فهل حرية التفكير والدرس عند توفيق الحكيم ليس معناها حرية الدرس والتفكير ؟ إن الطلبة هم الذين شكوا أولاً إلى الأستاذ وأبلغ الأستاذ شكواهم إلى العميد ، فلما لم يُشكِهم العميد اعتماداً على ما يعتمد عليه توفيق الحكيم من أن الدين لا خطر عليه جهروا بشكواهم للجرائد ، فاهتم بالأمر شيخ الأزهر ووزير المعارف وكان أن سحب الكتابان . فإذا كانت هذه قيامة فمن الذى أقامها ؟ مَن طلب تغيير الكتابين فى هدوء بالطريق

القانونى أم من أبى عليهم ذلك التغيير برغم كثرة الكتب الأدبية القيمة البريئة من الطعن فى الدين ؟

إن المناعة فى العقيدة التى يطلبها الأستاذ الحكيم للطلبة وللناس هى بالفعل عند هؤلاء الطلبة الذين أبوا ذينك الكتابين. وما هى المناعة فى العقيدة إن لم تكن هذا الإباء إباء الإصغاء للطعن فى الدين من غير موجب ولا داع ؟ وما هى إن لم تكن إقامة القيامة على كل ما يسىء إلى الدين فى النفوس ؟ إن أول ما يفعله الجسم امتناعاً على الأمراض هو ألا يسمح لجراثيمها بدخول الجسم إن أمكن . ومن هنا تجمد الدم أو محاولته أن يتجمد على الجرح ليسده دون الجراثيم . ومن هنا المصفّيات والمطهرات المختلفة فى مداخل الهواء والغذاء إلى الأجسام . أما إذا دخلت الجراثيم فليس للجسم وسيلة إلى الامتناع منها إلا شن الغارة عليها وإقامة القيامة ضدها على حد تعبير الأستاذ توفيق الحكيم . وهذا بالضبط هو ما فعله الطلبة حين أحسوا من ذينك الكتابين بالجراثيم التى تهدد صحة العقيدة والدين فيهم . وقد كتب الله لهم النصر فى الدور الأول من أدوار الامتناع والكفاح فسدوا الجرح الذى يمكن أن تدخل منه تلك الجراثيم ، وكفاهم بذلك الحاجة إلى كفاح تلك المطاعن بعد دخولها فى النفوس

ومن العجيب أن يشبه الأستاذ الحكيم قراءة المطاعن الدينية وعلاقتها بصحة العقيدة بالمعيشة فى الهواء الطلق وعلاقتها بصحة الجسم . إنه تشبيه مقلوب على أقل تقدير. ولا ندرى كيف أمكن أن يغيب خطؤه وخطله عن مثل الأستاذ ! إنه لا يستقيم إلا إذا كان تعريف الهواء الطلق عنده أنه الذى تكثر فيه الغازات الفاسدة والجراثيم . فإذا لم يكن هذا تعريف الهواء الطلق عنده فإنا نرجو أن يرى بُعد ما بين تنفس الهواء الطلق وقراءة المطاعن الدينية ، كما نرجو أن يرى فى ضيق صدور الطلبة بما فى الكتابين من مطاعن دليلاً على فساد جوها الروحى ، كما يدل على فساد الهواء ضيق الصدور به عند المتنفسين

لكن لعل أعجب ما فى مقال الأستاذ الحكيم جعله متانة الإسلام وثبوته على أحداث الزمان وسيلة إلى استئناس الناس لاستماع الطعن فيه بحجة أنه لا خطر على الإسلام من طعن الطاعنين؛ فإذا أبى الناس أن يستمعوا الطعن طاعن وغضبوا لدينهم عدّ ذلك

من رسائل الحكيم

القوة الحقيقية للرجل هى أن يستطيع أن : « يقول ما يريد وقتما يريد أن يقول » . والرجولة الحقيقية هى أن يبذل المرء دمه وماله وراحته وهناءه ودعته وطمأنينته وأهله وعياله وكل أثير عنده وعزيز عليه فى سبيل شىء واحد : « الكرامة » . والكرامة الحقيقية هى أن يضع الإنسان نفسه الأخير فى كفة وفكرته ورأيه فى كفة ، حتى إذا ما أرادت الظروف وزن ما فى الكفتين رجحت فى الحال كفة رأيه وفكره . كل عظماء التاريخ كانوا كذلك . بل إن مصر الفقيرة اليوم فى العظماء قد عرفت ذات يوم رجالاً من هذا الطراز . رجال لم يترددوا فى تضحية كل شىء من أجل فكرة ، والنزول عن كل متاع من أجل رأى . بمثل هؤلاء الرجال ربحت مصر كثيراً فى حياتها المعنوية والفكرية . بل إنى لا أبالغ إذا قلت إن الأمم لا تبنى ولا تقوم إلا على أكتاف هؤلاء . وإن الخطر المخيف هو يوم تخلو أمة من أمثال هؤلاء . نعم . وإنه ليخالجنى الآن شىء من القلق إذ أنظر حولى فلا أكاد أرى فى مصر أثراً لهذه الفئة العظيمة . فناموس اليوم هو وطء الفكرة بالأقدام ركضاً خلف الجاه الزائف والمال الزائل ، وإنكار الرأى والجبن عن إعلانه حرصاً على الراحة وإيثاراً للطمأنينة . وهكذا قد خلت صفحة تاريخنا من أسماء العظماء هذه السنوات ، وعجت بلادنا بأصحاب الألقاب وحملة الشارات وراكبى السيارات ! وحق لنا جميعاً أن نسأل هذا السؤال : ما هى المعجزة التى تنهض هذا البلد وهو على هذا الخلق ؟ ! وهل يطول غضب الله علينا فلا يظفرنا بعظيم من هؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يردوا الاعتبار إلى قيمة الرأى ، ويطهروا النفوس من درن المادة ، ويعيدوا المثل العليا النبيلة إلى مجدها القديم ، ويرتفعوا بالأمة كلها فى لحظة إلى سماء الخلق العظيم ! إذا حدث ذلك فقد نجونا . وإذا لم يحدث ذلك فلا شىء ينتظرنا غير انحلال أكيد ، وهبوط إلى مرتبة العبيد .

توفيق الحكيم

الغضب منهم فزعاً ، وقال : إن هذا الفزع أكبر سبة لديننا العريق العميق . هذا غريب من القول وعجيب من الاستدلال . إن الإسلام متين ثابت حقاً ، لكن متانته وثبوته لا يمكن عند المنطق السليم أن يكونا مبرراً لترك خصومه يعملون المعاول فيه اتكالاً على أنها لا تضره . إنها لا تضر مبادئه وأصوله فى ذاتها ولكنها تضره فى نفوس أهله الذين لا يهشُّون لدرء الأذى عنه حين يرون خصومه جادين فى الاستهزاء به والطعن عليه. إن الذى يصيبه الأذى بالسكوت على الطعن فى الدين هو التدين فى نفس المتدين الساكت .وإذا استمر على السكوت فسيسلمه من غير شك إلى الهلاك

ولست أدرى كيف غاب عن الأستاذ الحكيم أن المسلمين لو كانوا راضوا أنفسهم منذ بدء الإسلام على ما يريد الآن أن يروضهم عليه من السكوت على الطعن فى الدين ما ثبت الإسلام للأحداث ذلك الثبوت الذى يتخذه الآن حجة يخطئ بها الناس فى غضبهم للدين . ولماذا نذهب به بعيداً ؟ لنفرض أن المطعون فيه من غير عقل ولا روية هو توفيق الحكيم وفنه ومقدرته . ولنفرض أننا خاطبناه بما يخاطب به الناس فطلبنا إليه ألا يغضب ولا يدفع عن نفسه ولا يدع أحداً من أنصاره يغضب له أو يدفع عنه ، لأن فنه ظاهر العبقرية فلا خطر عليه من طعن طاعن مبطل ، ولأن الغضب والدفاع يوقعان فى الوهم أن فن توفيق الحكيم ضعيف لا يثبت على الطعن والتجريح ؛ ولنفرض أنه وأنصاره عملوا برأيه هذا فلم يغضبوا له ولم يدفعوا عنه ، ماذا يبقى على هذا من فن توفيق الحكيم أو صيته بعد قليل ؟ لا شىء، فسيألف الناس حتى أشدهم تعصباً له سماع القالة فيه ، وسيهون أمره عليهم بالتدريج حتى يدخل عليهم الريب فى أمره ويسلمهم الريب إلى تصديق كل ما قيل فيه

على أن الناس ، مهما فاتهم بتغيير رأيهم فى توفيق الحكيم من نعمة التسلى بفنه وقصصه ، سيظلون هم الناس لم يمس أرواحهم خطر ولا سوء . لكن ليس الأمر كذلك إن هم ألفوا الطعن فى الدين وصاروا إلى الرضا به والسكوت عليه . إنهم سيهلكون حتماً فى الآخرة إن لم يهلكوا فى الدنيا ، أو على الأقل هكذا يعتقد الناس . وسيعتقد ذلك معهم توفيق الحكيم حين يقرأ ما قرأوا من قوله تعالى : (وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . إنكم إذن مثلهم . إن الله جامع الكافرين والمنافقين فى جهنم جميعاً .)

والقيامة التى قال توفيق الحكيم إنها قامت ضد الكتابين فى الجامعة ليست بأكثر ولا أقل من إصرار الطلبة على تغيير الكتابين المستهزأ فيهما بدين الله بآخرين ليس فيهما استهزاء . فماذا فى طلبهم هذا يا ترى مما يجعل مثل الأستاذ الحكيم يسميه قيامة ويرسل من أجله سهامه على الناس من برجه العاجى؟

على أنه سواء أقامت القيامة بعملهم ذلك أم لم تقم فإن الطلبة الذين استجابوا لصوت ضميرهم فى ذلك إنما كانوا عاملين بتلك الآية الكريمة من حيث علموها أو من حيث لم يعلموها ، فهم فيما عملوا كانوا من غير شك على صواب . وسيجزيهم الله خير الجزاء من فضله على ما جاهدوا فى سبيل الإسلام .

محمد احمد الغمراوى

مرآة آلام مصر ومفاتن جمالها الخالد تنعكس فى أول صفحة مصرية صميمة فى سطور من دموع الصبا الذاوى فى ديوان :

مقابر الفجـــر

للشاعر الفنان محمد رشاد راضى

يتضمن الكتاب مهرات الشاعر فى ليالى صفوه ومقطوعاته الباكية فى أويقات شجاه وهو يمثل فى ذاته نهاية حياة فى ريعانها.

يطلب الكتاب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على ومن المكاتب الشهيرة فى القطر ويطلب بالجملة من دار النصر التجارية بشارع إبراهيم باشا رقم ١٤ ثمن النسخة ٥ قروش (للجملة سعر خاص)